

وصية الشيخ

كان النصر بعيدا عنه والهزيمة محدقة به من كل جهة ، وانهمزم في ساعات كان النصر يحوطه من كل صوب ؛ كل هذا بوحى طائفته فكما سمعت وارتقت شعر صاحبه أنه أصبح يحاكي الملائكة في العلو ... ولكن إلى حين .. إلى وقت يصطدم بالحقيقة الواقعة فينزل من عليائه .. ، ثم مرت الأعوام تلو الأعوام وتطور الفكر البشرى ولم يعد ذلك الشخص الذي كانت كلمة واحدة ترفعه إلى مصاف الأبطال أو عباقرة الشعر والموسيقى ، لم يعد ذلك الشخص الذي يهزأ من صهيل الخيل وصلصلة السيوف مقتحما الموت دون مبالاة لنداء حبيبته أو لسماعه بيت شعر ... لم يعد ذلك الذي يسير قلبه ويعمل بوحى طائفته .. فقد تطور بمواطنه إلى العقل المنطقي ، فلم يعد تسيره العواطف وفق هواها .. »

« أنا لا أقول يا بني إن الإنسان في هذا الوقت قد وصل إلى هذه الدرجة على أكمل وجه فلا يزال العاطفيون كثيرون بل وحتى الغرائزيون لم يعدموا . »
« ولكني أقول إن الإنسان في تطور مستمر ولذا فيجب أن يسير وفق عصره .. والبقاء للأصلح »
« فأنت الآن يا بني في عصر المنطق والعقل الواقعي .. ولكني أقول — بصفتي مخضرم — يجب أن لا تكون كآلة لا تعرف غير المنطق الجاف بل يجب أن تعمل كما قال أفلاطون حين مثل الأمة بالإنسان قال ما معناه : (يجب أن تتكون الأمة من ثلاث : الرأس والصدر والبطن) أي من العقل والعاطفة والغرائز ، نعم يجب ألا تجعل المنطق هو كل شيء ولا شيء سواه بل أصغ إلى صوت العاطفة ومطالب الغريزة ولكن على ألا تسير أنك بل زن مطالبهما بميزان العقل ، فإذا ما وجدت ذات نتائج وآثار حسنة أجب لهما ما يريدانه ، ولا تؤديك إلى الهاوية إذا ما أجبتهما المطالب ، أما إن وجدت

كان السكون مخيما على ذلك الكوخ النائي في إحدى القرى حين انتفض الشيخ المريض من فراشه وأحس بشبح الموت يرقرق حوله .. وقد كان ابنه الفتى جالسا قرب فراشه ينظر إليه بعين القلق على حياته . واعتدل الشيخ قليلا على فراشه ، ثم أشار إلى ابنه الفتى للاقترب منه وقال بصوت خافت : أي بني .. إنني أشعر بأن شمسي تم بالغروب ونجمي بالأفول ولم أترك لك شيئا من المال لترثني ، ولكني أريد أن أطمئن عليك قبل رحيلي « فالتحنى الفتى أمام والده الشيخ وهو يبكي تأثرا ثم قال : « أبتاه ستركتني وحيدا في هذه الحياة .. وربما أرحل من هذا المكان إذ لا يطيب لي العيش وحيدا هنا فإذا أردت الاطمئنان على أثر أممي الطريق بما أوتيت من الحكمة وتعلمته من العلم بنصائح الغالية وإرشادات الثمينة « فابتسم الشيخ واعتدل في جلسته وقال للفتى : تعال يا بني وادن مني .. ماذا تريد ؟ ومن أنا حتى تطلب مني الإرشادات وترجو النصائح اعلم يا بني أن كل ما تریده موجود في نفسك ، وما على إلا أن أساعدك على معرفتك ما فيها . »

« لتعلم يا بني أنك خلقت من الغرائز أولا ثم تطورت بك السنون فاعتلت الغرائز أو بعضها إلى العواطف ثم مرت عليها سنون أخرى فارتفعت بعض عواطفك إلى العقل والمنطق . »

إذا فقد خلقنا من الغرائز جميعا وما الفرق بين زيد وعمر إلا فيما ارتقى بغرائزه ، فأصبح ذلك الإنسان الوحشى الذى يفتش الغاب ويلتحف السماء ويستوطن البرارى تسلط عليه غرائزه فيعمل بوحياها .. أقول أصبح ذلك المتوحش إنسانا شاعرا عرف الله بعقله فعبدته بقلبه ، وشعر بالحنان فأخذ يحنو على أولاده وزوجته ثم أخذ يعمل القصائد والأشعار وابتكر الفن فنبغ في الموسيقى والرسم ، ثم أخذ يشن حروبا طاحنة لإعلاء معتقداته فأ مات ومات وكان ينتصر في وقت

أن الإذعان وبال عليك والسماع إلى رغبتكما ضرر بليغ على
كيانك فإياك آنسذ والاندفاع . فانك إن ندمت فلن
يجدبك الندم ، وإذا فيجب عليك أن تبحث عن وسيلة
أخرى لتحقيق رغباتهما أو لتهدئتهما .

« إن الشاب يسبح أحيانا في الخيال فيجده لذيذاً
جيلاً كالطفل حينما يذهب إلى شاطئ البحر مع أمه ثم
يستلطف الماء وينافل أمه فينزل من الشاطئ ، وكما تقدم
استلذ منه حتى يأخذه التيار ويستغيث ، ولكن هيهات ..
أى أن الطفل لا ينتبه إلا وهو بين مخالب الموت .

« إن العاطفة يابى إذا لم تزد عن حدها شيء جميل ...
بل هي التي تشعر بك بأنك إنسان عرفت الحضارة والمدنية ،
وهي التي تشعر بك بأنك حي لا مجرد موجود ، ولست
بآلة ميكانيكية جامدة ، ولكن إذا زادت عن حدها
وطغت فالويل لصاحبها ، إن العواطف للإنسان كنسمة
رفيقة تنمش الورود حين هبوبها ، وتدب الحياة
في الأحياء وتساعد شموع العقل المولعة على إبقائها
مضيئة ولكن إذا ما طغت انقلبت إلى زوبعة أطاحت
بالأزهار والأشجار ، وأحالت جنان الروض إلى صحراء
قاحلة ، وإذا عصفت استحوالت إلى عاصفة هوجاء
أطفأت سراج العقل وغدا صاحبها يتخبط في دياجير
الظلام على غير هدى في مسالك هذه الحياة الوعرة .

« يهرب المرء من الماضي إذا كان مظلماً ولا يعتبر ..
وهو يتجاهل واقع حاضره إذا لم يكن حسب رغباته
فتمر عليه الأيام ولا يتدبره وهو يفض النظر عن المستقبل
إذا كان يأساً ولا يعمل لتحقيق أمانيه بارشاد العقل
ولا يتعظ .

« فهو يهرب من الماضي ويتجاهل الحاضر ويفض
النظر عن المستقبل ولا يجد ملجأ غير الخيال الذي
لا يكون أقل خطراً من ذلك التيار المائى الذى أغرى
الطفل ثم جرفه .

« فاصبر إذا يابى .. واعلم بأن لك عقلاً لا يقل شأننا
عن عقول الآخرين ، وإذا كنت تخطئ وتندم
في بعض أعمالك فانما السبب في أنك لا تطيعه بل
تندفع وراء الغرائز أو العواطف .. فإياك .. إياك
والاندفاع .

« لقد علمت الآن أن خيرك وشرك كليهما منك
فاذا أحسنت التصرف أحسست بالراحة ، وبدأت ظلال
السعادة ترفرف عليك أما إذا انهار العقل أمام ضغط
الرغبات فالويل كل الويل لك .. فنصيحتي لك يا بنى
أن تجعل عقلك رائدك وتعمل بوحى ضميرك وأن
تعطى عواطفك وغرائزك حقها .

« لأن العقل يجعلك تدرك إنسانيتك ، والضمير خير
رقب وأخلصه ، يشعرك بالراحة والطمأنينة في قرارة
نفسك .. ، والعواطف هي التي تسمو بك إلى ذرات
عالية في سمو النفس ، وهي نور يريك جمال الحياة
ويظهر لك بعض ما خفى عنك من حقائقها ... ،
والغرائز هي أصل وجودك وبها نشأت وأبقيت
على نوعك .. »

« واختتم هذه الوصايا بوصية لا تقل عما سبق قيمة
وهي ألا تجعل اليأس يجد إلى قلبك سبيلاً .. فالذى
لا يسقط لا ينجح والذى لا يفشل لا يفوز ، والذى
لا يشقى لا يسعد . فانخذ من الوقعات والفشل دروساً
تعتبر بها لما هو آت وتلتأخذ عدتك لما أنت مقبل عليه
في هذه الحياة .

فاسع في هذه الحياة وقلبك حامر بالإيمان فالنجاح
مرافقك ، وليس هناك أقوى بأساً في تحطيم العقبات
وتذليلها من الأمل .

« ولى كلمتي الأخيرة — إن لم أثقل عليك بما سبق —
أن تلزم جانب الحق في حياتك فلن تفشل وتمسك
بالفضيلة فلن تندم . وإن اتبعت هذه النصائح فقد
حالفك الفوز في حياتك .

وهنا قال الفتى لوالده الشيخ : « ولكن خبرنى
يا أبتاه .. ما هو الحق وكيف أجده ، وما هي الفضيلة
وكيف أجدها ؟ »

فأجاب الشيخ لابنه الفتى : « الحق يا بنى هو ما يمليه
عليك ضميرك ويوافق العقل متفقاً مع المنطق .. ،
ولكن يجب أن تعلم أنك إذا أردت أن تبحث عن
الحق ، عليك أن تتجرد من جميع النزعات ، في تلك
اللحظة لأنها ستكون ستائر تحول دون أن ترى نور
الحق .. أما الفضيلة يا بنى هي أن لا تخالف ما تعتقده